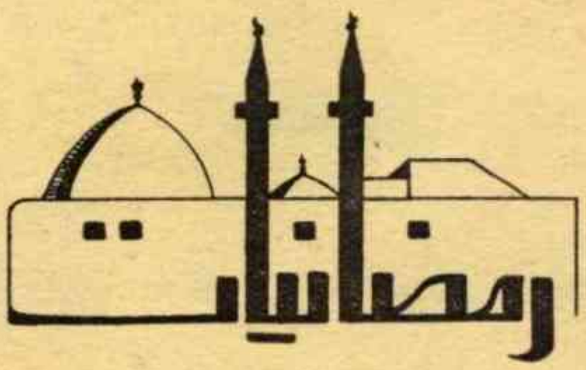
الشيخ جلال الحنفي



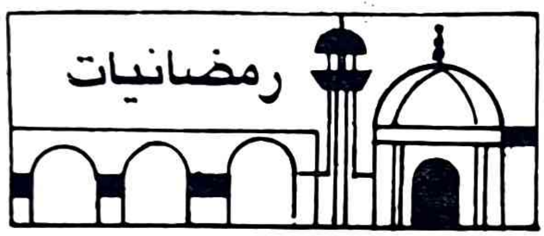
١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م

الشيخ جـلال الحنفي

رمضانيات

دار الحرية للطباعة ــ بغداد

١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م



بسم الله ولله الحمد والمنّة

هـذه مقالات يوميّة في الكـلام على الصّيام وفضـائله نشرتها لي جريدة الجمهوريّة في شهر رمضان المبارك عام١٤٠٣ هـ الموافق ١٩٨٣ م وقد تمّ استلالها من الجريدة وايداعها هـذا الكرّاس بموافقة مدير عام دار الجماهير للصّحافة ـ مشكوراً ـ بكتابه (ذي الرّقـم ١٤/٤/١/٤٥) في ١٩٨٨/١/٣ .. وتمّ نشـرها باجازة دائرة الإعلام الدّاخلي في وزارة الثقافة والاعلام برقم ٣٠ في ١٩٨٨/١/٩ .

الشيخ جـلال الحنفي

أيّامـاً معدودات

هكذا وصفت الآية القرآنيّة الكريمة شهراً كاملاً بأنه أيّام معدودات وكان ذلك من أجل تهوين ماتستشعره النفوس من طول أيام الصّيام ، وما يبعثه الشيطان في ظنونها من الضّجر والسّأم لاجتياز شهر بكامل أيّامه على أمر واحد متكـرر هـو الصّيام والامساك عن الطّعام والشّراب وما الى ذلـك ممـا رسـمت الشّريعة على أتباعها أن يمسكوا عن تناولـه أيـام أداء هـذه الشّـعيرة .

والنّص القرآني في هذا الوجه هو « يا أيها الذين آمنوا كتبَ عليكم الصّيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أياماً معدودات » ان شهر الصّيام يعدّ أطول المواسـم الدينيّة التي جرت العادة ان تكون قصيرة يسيرة في أديان أخرى ، لذلك جاء النص مبدّداً استغراب من يستغرب امتداد موسم الصّيام الى أمدٍ زمني يستغرق الشهر كله ..

والواقع في أمر الحياة أنّها طالت أم قصرت ليست سوى أيّام معدودات.. تذهب بكل حلاوتها ومرارتها، وبعنائها وراحتها، وبخيرها وشرّها ، فلا تنتهي على من تنتهي عليه ، الاّ وهو يراها لم تتجاوز الايام المعدودات ، فكأن الآية القرآنية ارادت ان تلفت

انظار الذين خوطبوا بهذا الخطاب الى انّ الزّمن رغم طوله وامتداده ماضٍ بأهله ، فلا جدوى من الجزع ان طال عناء النّاس به، فانّه ليس الاّ أيّاماً معدوداتٍ ونحن كغيرنا ممّن صام سنين عديدة سبقت وجدنا ايّام شهر الصّيام وهي في الغالب ثلاثون يوماً ليست لتزيد على ايام معدودات .. وأسلوب كتاب الله في مخاطبة الناس ملائم لهوى هذه النفس البشرية التي تتأثر كثيراً بألفاظ التهوين والتلطيف وتستعظم ما يملى عليها مقروناً بالشّدّة والتّنفير .

انّ ايّام الصّيام التي نستطيلها أوّل الأمر ستنتهي بعد ايام ، حين نستمرىء الصّوم ونقبل عليه برغبة فيه ، فلا نجدنا الاّ ونحن نسمع مدافع العيد تملأ اجواءنا بالبشائر السّارّة .. فان نحن تناولنا الصيام بضجر واكفهرار نفسيّ فانه سيبدو طويلاً بحيث يظنّ شهره مكوّناً من شهرين .. وليكن ذلك كذلك فانّه يوم تنتهي ايامه ، لن يكون الا ايّاماً معدودات .. نخلص من هذا الى ان النفس البشرية تتعامل والزّمن بمذاق لاعلاقة للسّاعات والدّقائق بأجزاء الوقت فيه ، اذا كان تعاملها والزمن معتمدا على أخذ الأمور بالجدّ ، وارتياض الأحداث بالحزم ، ومبادرة كلّ خير بالرغبة والتذوق الجميل .. وقديما قال من قال :

شكونا الى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

ومن كان مريضا

استثنت الشّريعة الاسلاميّة المرضى من حكم الصّيام في رمضان .. وهذا هو عين العدل فانّ الله الذي خلق العباد لعبادته،

نَحّى عن المرضى من هؤلاء العباد عبء هذه العبادة . ليعلموا ان أمر عبادة الله ليس من فصيلة الأمور القسريّة التي يلزم بها النّاس رضوا ام لم يرضوا .. ومعنى ذلك أن الله يعفـو للمرضى مـن عباده عن الالتزام بما يشقّ عليهم منها رأفةً بهم ورحمة .

إنّ ربوبيّة الرّبّ تعظم في عين خلقه ، حين تكون أحكامها أحكاماً تسامحية يلتمع فيها اللطف الرّبّاني والرّحمة الإلهيّة وبذلك يفطر أناس بين الآلاف المؤلفة من الصّائمين ، فلا يكون في إفطارهم ما يوصَمون من أجله بخرق الاجماع والخروج على الملة السمحة..

انّ الشريعة الاسلامية كانت في مثل هذا التعامل قد أخذت بهدب العدل ، ولم تلزم أحداً بما يشق عليه حتى فيما هو من حقّ الله سبحانه ، في حين أن حقّ الله هو الحقّ الذي لا مِرْيَةَ فيه ، وأنه هو الحقّ المرجّح على سائر الحقوق ..

الاّ ان الله أنسأ للمريض في موعدِ صيامهِ الى يوم يبـرأ من علّته ويَنْقَهُ من مرضه .. وفي هذا تعليم للبشر يومَ يأمرُ آمرُهم بأمر أن يلاحظ أنّ هناك من يستحقون الاستثناء والتأجيل والمعاملة الخاصة التي لا إبطال فيها لقانون ولا تحيّز فيهـا لذي قربى ، ولا تسامح فيها عن حكم تقتضيه طبيعة انشاء الأحكام ..

ويعني هذا ان المريض الذي عناه النصّ القرآنيّ « ومن كان مريضا او على سفر فعدّةٌ من ايام اخر » انما هـو المريض حقاً .. لا المتمارض فانّ المتمارض عابثٌ معطّل للأحكام خارج

على النظام العامّ .. والمريض كذلك ـ اي من يكون له حق الافطار بحكم الاستثناء القرآني ـ ليس من عرض له شيء من انحراف الصحّة أو جرحت له إصبع ، او أصابه خدش في ساقه ، أو قلّ سمعه أو شكا ضرساً من أضراسه ..

فانّ من وقع له ذلك وان كان يعدّ مريضاً فانّ مثل هذه الحالات لا تصحّ ان تكون استثناءات يستثنى بها النّاس من حكم الصوم ..

ونفهم من هذا أنّ حقّ المريض في الاستثناء من الحكم الشرعي ـ أيّ حكم كان ـ انما هو منوط بما يفسره العرف الاجتماعي ، والقانوني الطبي الذي يقرر مواقع الضرورات والمحظورات في عالم الدواء والأدواء .. فمن وجد أنّ له حقاً في الاستثناء الشرعي من الصيام ، فليكن اعتماده في هذا على فتوى طبيب وليس على ظنون مظنونة ، فأن الظنّ لا يغني من الحقّ شيئا ..

صوموا .. تصحّوا

وقد قرأ ذلك بعض المذيعين يوماً ما بلفظ « تصْحُوا » من الصحو لا من الصحّة .. وذاك أنّ بعض العلل والأسقام ينجع معها الجوع والحِمْيَة التّامّة .. وهذه أمور يعرفها الاطباء الذين يعالجون الأبدان معرفة يومية ..

فمن كان مرضه من هذه الفصيلة فأوصاه الأطبّاء بالصّوم فَلْيَصُمْ ، فانّ الاستثناء لاينسحب عليه ، ولابدع في هذا فانّ

من العلاجات الفطرية في حياة المرضى ان يمتنع المريض امتناعا كلياً عن تناول شيء من الطعام والشراب الوقت الطويل بدافع غريزي ، لما يكون في ذلك من منافع تتحقق للمريض من طريق هذا الجوع الناشيء بسبب انسداد الشهية الى الطعام في نفسه .. ولو أكل فلعلّه يؤذيه ذلك .. وكثيراً ما نرى اهل العليل يتوسلون اليه توسلاً في غاية الرّقة يناشدونه أن يأكل هذه اللقمة وهذه اللقمة ، فيستعصي عليهم اقناعه وحمله على تذوق مايريدون منه أن يتذوّقه .. وهذا من بعض فعل الغريزة التي من شأنها حماية المريض من أن ينجرف في تيّار شهواته التي يتشهاها ..

فمن كان مريضاً بمثل هذه الأدواء فوصّاه الطبيب بالصّوم ، فانّ الصّوم له عافية وعلاج ..

وانّا نلاحظ أن فتوراً يعلق بالجسم يغريه بالكسل والاقبال على النّوم المستديم ـ لا المستدام ـ لكنه ان « شدّ حيله » ونهض الى بعض عمله ، نشط جسمه وزال عنه خموله وكسله .. وفي الذين يظنون أنهم مرضى مَنْ اذا أنكر في قرارة نفسه أن يكون مريضا فغادر فراشه تحصّل له من هذه العزيمة كثير من الشفاء والعافية .. فاذا كان مثل هؤلاء ففي مثلهم قيل « صوموا تصحّوا » ..

وهذا أمر يحسن أن يكون للطبيب فيه رأي يراه وقرارٌ يقرره ، لينفض المسلم المتعبد عن كاهله عبء التقصير في حق الله فلا يقع في المعصية بغير علم ..

الصـوم جُنّة

هذه كلمة وردت في تضاعيف مقولةٍ قالها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذ قال « الصّوم جُنّة ، فاذا كان يوم صوم احدكم فلا يرفث ولا يفسق ، فان خاصمه أحد فليقل انــي صــائم » أو كما قال ..

والمراد بالجُنّة التّرس الذي يتترس به المقاتل يدرأ عــن نفسه ضربات الخصم ، فهي ما يستجنّ به الانسان اي ما يستتر وراءه مــن الســواتر .. والجيم في اللفــظ مضموم والنّون مشدّدة ..

وكون الصّوم جنةً يستجنّ بها الصّائم أمــرٌ في غايــة المطابقة للواقع ، فانّ الصّائم يتخذ من صــومه وقاءاً يتقي بــه ما يتنافى والصّوم مــن خُلقٍ متهافتٍ ، وتصرّفٍ بعيد عــن السّجيّة السّليمة ، وموقف لئيم غير كريم ..

فاذا خوصم الصّائم ابّانَ صومه ، تذكّر أنه صائم فعدل ان يكيل لمخاصمه الصّاع صاعين ، فان الرجولة وشــرف النفس في مثل هذا الموقف جديران أن يكون الاحتكام اليهما ، لا الــى الجاهلية والحقد والانتقام ..

فاذا فعل الصّائم هذا كان صومه خير جنة له مــن ركوب مراكب الجهل ، وكان صومه خير عاصم له من الانزلاق في تيار الاستفزاز الرخيص ، وبذلك يكون لسانه في منجاة من العثــار ، ويكون ضميره في منأى عن التلوث بغاشية سوء تغشاه ..

ان في هذه العبارة النبوية الموجزة تصويراً لمعنى السّلم ، وحثّاً على الأخذ بهدْيه والجنوح اليه، وانّ فيها حثّاً في مواجهة الجهل بالتعقل واتزان الشخصية ، وخروجاً من اطار الجاهلية والعنجهيّات المألوفة في الأقوياء ، خاصّة عند التعرض لشيء من استفزازات المستفزّين •• غير انّ هذه القوّة تنقلب الى ضعف مصطنع ، وانّ هذه الشدة تؤول الى لين مفترض ، وتلك هي القدرة كلّ القدرة ، وليس ذلك هو العجز كل العجز •••

ومن هنا كان الصّوم جنّة وكان وقاءاً وكان درساً لكل من الطرفين الجاهل والمجهول عليه ••

وما أحسب قانوناً من قوانين ضبط النفس عند الهياج ، أو عند وجود دواعيه ، أقدر من هذا القانون في مواجهة الاستفزازات السيئة الأثر والعميقة الغور ••

انّ الصّائم اذا كان في موقف مواجهةٍ تتطلب منه ركوب مركب الجهل الوعر فتذكّر أنه صائم ، وأنّ الصّوم خصلةُ خير ، وشعيرة طاعة ، وركن من أركان دينه الذي يستبصر في حياته على هداه ، خجل من نفسه ومن ربّه ان يلوذ بالجهل وهو يمتلك ناصية الحلم ، وان يرجع الى الكفر وهو عند أعتاب الايمان ••

أما والله انّ الصّوم جُنّة لمن شاء أن يستجنّ به ،• وصَدَقَ رسول الله في توجيهه الكريم الرشيد ••

فريضة الصوم في ميزان الشكل والموضوع

في بعض كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من لَمْ يَدَعْ قول الزّور والعمل به، فليس لله حاجة في ان يدع طعامه وشرابه » .

نفهم من هذا ـ وهو فهمٌ لا نفهمه نحن وحدنا دون أيٍّ ممن يقرأ نصّاً واضحاً كهذا النّص ـ أجل نفهم من هذا ان الصّائم حين يترك طعامه وشرابه فلا يتناول شيئاً منهما خلال فترة الصّيام ، لا يرضي الله ان كان لا يترك مع ما يتركه من طعام ومن شراب قول الزّور ومقارفته .. فالصّوم والحالة هذه ليس مجرّد إمساك عن الطّعام والشّراب بل هو كذلك امساكٌ عن الزّور واللغو والأذى والعدوان على الناس .

ونفهم من هذا أن الإمساك عن هذه الجرائر يجب ان يكون ذاتياً وتلقائياً ، أي ان ترك الطعام والشراب عبادة لله ومسيرة في طريق طاعته ، يستتبع الى نفس هذه العبادة الامساك عن سيئات الأعمال ، فان الامساك عن الطعام والشراب تبتّلٌ الى الله ، والخوض في الجنايات وايذاء عباد الله جريمةٌ صلعاء ، ولا تستوي الجريمة والتبتل فان أحد طرفي هذه المعادلة محبط للأعمال الصالحة ، ومن أراد ارضاء ربه فليس من طبيعة ذلك أو من بعض ذلك ان يغضب ربّه .. فمن بديهيّات الصّوم الذي هو الكفّ عن الطعام والشراب ان يكون مقروناً بالكفّ عن المآثم والسيئات .. والا اجتمع النقيضان في شيء واحد ونهض الانسان

بابطال ماتَمَّ من قِبَلهِ من أسباب الخير فَتَنسَخَ معالم الخير به وصيّره شرّاً محضاً يتهاوى بصاحبه يوم القيامة سبعين خريفاً في النار ..

ان بعض العبادات ـ بل انّ معظمها ـ لا تزاد بها ظواهرُها دون بواطنها ، ومن ذلك الصّوم الذي ظاهره الجوع والعطش ولكنّ باطنه تهذيب النفس وتنقية الضمير وصون اللسان عن الشرك بالله والاضرار بالناس ..

وعلى الذين يطيقونه فدية

يظنّ أناسٌ أنَّ الصّوم نمط من أنماط العبادات الشائعة في بعض الدّيانات القديمة او لدى المتزمتين الذين يَعْمِدون الى ارهاق أجسامهم وتعذيب أجسادهم لانها في حسبانهم أو في عقيدتهم المعتقدة أوعية للشرّ ومباءات للهوى والضّلال البعيد ..

ولكنَّ الصّوم في الاسلام لا يتصل بهذا الهدف ، ولا يرتبط بأيّ فلسفة ترمي الى تعذيب الجسد من أجل التوصل الى تهذيبه واصلاح سلوك الانسان الذي يعيش في اِهابه ..

ليس في الصّوم أدنى شيء من ذلك ، وانما هو فريضة تعبّديّة ملحوظ فيها قدرة الجسد على مواجهة مثل هذا الحكم الشرعيّ ذي المنافع المشهودة التي هي الغاية المتغيّاة من سائر ما قررته الشريعة السّمحة من أحكام في الدين ..

والجسم البشريّ قادر على حمل أعباء الصّوم على مافيها من ثقل ، والله ادرى بما أودع في هذه الأجسام من طاقات

وحيويات تبرز للميدان عند الطلب فتفعل الخوارق •• فان بلغ الأمر بالصّائم أن يجد جسده بات عرضة للعذاب ، وأن طاقتـه في الصّبر والتحمّل قد نفدت او اوشكت ان تنفد ، او انه يعلم ذلك في نفسه وفي بدنه واستعداداته فاولئك هم الذين سماهم الله بالمطيقين « وعلى الذين يُطيقونه فِدْيَةٌ طعامُ مسكين » ••

والذين يطيقونه قوم عند استشعارهم في نفوسهم التعرض في الصوم للعذاب لا يلزمون به لانّ الصّوم ليس تعذيبا للجسـد لافي المقدمة ، ولا في النتيجة •• ولكن لابد ـ في زماننا ـ حين نستشعر ذلك أن يكون للطبيب فيه رأي وقرار ، خشية أن يكون ذلك الاستشعار من بعض فعل الهوى ومن بعض وحي الشيطان ، وهو ذو اختصاص في هذا عظيم ••

ثم أتمّوا الصّيام الى الليل

ليس المراد من التوصية باتمام الصيام الى الليل، في هذا النص تحديد مواقيت الصيام الزمنية بدءاً وانتهاءا •• وانما المراد بذلك التوصية بأداء هذه الفريضة على أكمل وجه وأدق تنفيذ ••

واستعملت هذه الصيغة في غيرما مكانٍ من كتاب الله •• من ذلك « وأَتِمّوا الحجّ والعمرة لله » ومن ذلك فأَتِمّوا اليهـم عهدهم الى مدّتهم » •• وجاء في التنزيل العزيز مايدل على معنى التمام بالمذاق البياني الذي تتذوقه وهو قوله تعالى « تماماً على الذي أحسن » ••

فالتوصية بالأتمام تعني الأتيان بالأمر المأمور به على أحسن وجوهه وأكملها وأوفاها ..

ويفهم من هذا الحرف في النصّ انّ الصّوم عمل لا يتحقق مفهومه الاّ باكتمال شخصيّته ، وتحقق جميع أبعاده .. وتأويل هذا أنّ الصّائم اذا صام يومه متحمّلاً حرّ ذلك اليوم وعطشه وجوعه وثقله ، ثم أفطـر قبل ميعاد اِفطاره فانّ ما صنعه يعدّ محبطا لعمله ، لا ثواب لقاءه ولا أجر ازاءه ، لأنه لم يمض به على الوجه التّامّ ..

واذا كان لكلّ من يعمل عملا أجر يكافىء ما أنفق فيه من زمن ، وبذل من جهد ، بحيث اذا أنجـز نصف العمل أثيب على هـذا النصف بما يجزيه .. فأن الصوم مالم يتم تمامه وينتهي يومـه وصيامه لا ثواب لصائمه الذي أفطر قبل حينونة حين الأفطار .. وذاك لأنه لم يتم الصيام بحيث يكون الليل قد أقبل مـن هنـا والنّهار قد أدبر من هنا ، وذاك هـو الحكم الشرعي الذي يقف عنده صوم الصّائمين ..

ومن هذا نفهم انّ الصّوم مسألة لا تتجـزأ بحـال مـن الاحوال .. اللهم الاّ من اصابته مصيبة الموت في عرض نهـاره فانّ له وافِي أجره عند ربّه..وفاقاً لقوله تعالى «ومَنْ يخرجْ من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .. وفي هذا تعليم للنّاس ان يكملوا أعمالهم اذا عزموا عليها ، و « رحم الله امرءاً عمل عملاً فأتـمّه » ..

كما كتب على الذين من قبلكم

عرفَ الصَّومَ أهلُ ديانات قديمة سبقت الاسلام في سائر أنحاء الارض .. ولكن عدّة أيّام الصّوم في الاسلام أوسع من عدّة أيامه في الدّيانات الاخرى ..

والمراد من الاشارة الى أن الصّيام كتب على الامم القديمة إعلامُ المؤمنين بالدّين الجديد، بأنّ هذه الفريضة من القواسم المشتركة بين معظم الاديان ، وأنها مألوفة ومعروفة لدى سائر أبناء البشر من أتباع الرسل والنبيّين الاقدمين ، وانها تجربة انتهى النّاس من تجربتها ، فلمّا فرضها الله على المسلمين فأنّه لم يفرض عليهم ما لم يفرضه على عباده من قبل .

وان معنى التنافس في العبادة ظاهر" في هذا التعبير اليسير ، فما من أحد يُدْعى الى أمرٍ ويقال له انه أمر" دعي اليه الغير فلبّوا الدعوة واستجابوا للنداء ، الاّ نفخ فيه ذلك من روح الحماس والنشاط والحيوية ..

ولا أريد أن أفيض في الكلام على حكم الصّوم في الدّيانات، ولكني أريد أن أخلص من هذه التوطئة الى أنّ اهل الديانات وغيرهم من غير أهل الدّيانات ، ومن المشركين وخصوم الملة الحنيفيّة الجديدة من يهود ومنافقين ومن لفّ لفهم ، لم يقدموا

على التشكيك في أهمِّيَّة فريضة الصّوم التي فرضت على المسلمين أول عهدهم بها في موسم قائظ شديد الحر •• ولم نسمع أن أحداً من هؤلاء لَوَّحَ للمسلمين بأن الحر سيهلكهم ، وأن أثر العطش على الجسم أثرٌ قاس ، وأن الاسلام دعاهم الى خطب غير يسير ••

لقد كان خصوم الدين الجديد ينبرون في مواجهة كل حكم من أحكام الدين بالانكار والتشكيك والتثبيط وكان الاسلام يناقش مثل هذه المقولات ويفنّدها ، ويقوّي عزائم المؤمنين على الطاعة والاخلاص لله ولرسوله •• اللهم الا الصّوم فانّه لقي من سائر سكان المدينة ومَنْ حولها ومن في الجزيرة على اختلاف مشاربهم ، استجابةً مطلقة واعترافاً عجيباً لا أجد له نظيراً في تأريخ السيرة النبوية وفي أحداث الاسلام قبل الهجرة وبعدها •• مما ينبني عليه أن اعتراض أحد على فريضة الصيام لو وقع ذلك ، مردود من سائر نماذج البشر في الدنيا بالاجماع ••

الامانة التامة

كثيرٌ من النّاس لهم عزم ظاهر على اجتناب العيوب والتَّنحّي عن مواقف التهم •• ولكن حجماً كبيراً من هذا الاجتناب والتنحي قد يفسر بالمقياس الذي جاءت الاشارة اليه في قول الشاعر :

ويجتنب المرء العيوب لأنَّها لدى عائبيه لا لديه عيوب

ومن هنا نشأت خَلَّةُ النفاق في المنافقين ، فانهم اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خَلَوْا الى شياطينهم قالوا انَّا معكم •• فانّ خوفهم من نقد النقّاد ، وخشيتهم من احاديث

الناس ، ولغط هذا وذاك جعلهم يعمدون الى ان يَبْدوا وجه النهار بهيئة ترضاها الناس ، فاذا كانوا حيث لا تكون الناس بَدَوْا بالهيئة التي يرتضونها هم دون سواهم .. وقلّما وُجِدَ في الناس من لا يصانع الناس ولا يسترضيهم .. وتلك سلوكيات لا يجوز ان يقع منها ما يقع على حساب الاخلاق والقيم الفاضلة حين يراد لها ان تهدر مصانعة واسترضاءا .. فاذا جئنا الى حكاية الصّوم وجدنا أنّ فيه خُلُقاً لا يوجد في غيره، فالصّائم لا يَعْنيه من رقابة الناس وعدم رقابتهم شيء .. فلقد يكون في عقر داره لا احد معه ، ويكون لديه لذيذ الطّعام وشهيّه ، وبارد الشّراب وسائغه ، ما لو أكل من هذا وشرب من هذا فما من أحدٍ يراه أو يحكي عليه ..

ولكنّ هذا الصائم لا يفعل ذلك ولو هدّه الجوع ونهك قواه العطش ، وانه لا يصنع هذا لأنه يكرم نفسه ، ويحترم ارادته، ويرسم اجلى لوحة وأنقاها لأمانته التي لا يرضى مهما كلفه الأمر ان يُهينها وان يخدش وجهها الناصع الجميل ..

ففي الصّوم تضرب الارقام القياسية لأعلى درجات الأمانة ، في عالم السلوك والتعامل والاخلاق .. ولئن لم يكن في الصّوم من مزيّة الاّ هذه المزيّة ، فانه ليعدّ حتماً في قمة العبادات وعرنين الطاعات ، وتلك هي الامانة التامة التي لو فتحت لنا السماء ليلة القدر فسألناها الله لربحنا بها اعظم الارباح .

عملية تغيير

الصّوم عملية تغيير لحياة مجتمع بأسره تتبدّل به عاداته التي اعتادها خلال عامه ، فتكون مواقيت طعامه وشرابه غيرها سائر أيّام السّنة ، وكذلك القول على مواقيت نومه ويقظته ، وكثير من أعماله وتحرّكاته اليوميّة ..

وانما جعل الله للصّوم شهراً كاملاً من أجل ان تستقر العادات الجديدة في الصّائم ، فيبيت يألفها ويعتادها وترتاض نفسه عليها ، فيراها بعد هذا الارتياض وكأنها حالة قديمة مألوفة لا تستوجب الابذعرار والاستيحاش..ومن الأمر الطّبيعيّ ان تغيير العادات والمواضعات التي تواضع عليها الناس عبر زمن طويل ليس هيّناً ولا يسيراً .. وفي صوم رمضان مايرينا جهرة ان تغيير العادات في النفوس مسألة ممكنة غير مستحيلة ولا مستعصية.. ولكن العبرة فيهذا الامر انيكون هناك انتفاع من العبرة ، واستفادة من الدرس ، وتمييز بين عادة ضارّة وعادة نافعة .. وحين ينعدم هذا المقياس ، وينتفي به القياس ، فان قدرة ارادة التغيير على التغيير تنعدم وتنتفي وتفتر وتضؤل .. انا نرى كثيراً من المدخّنين من الذين يعترفون علانية بعظم ضرر التّدخين عليهم ـ صحياً بالدرجة الأولى ـ يدّعون أنه الكف عن التّدخين أمر عسير .. غير أن هؤلاء اذا صاموا رمضان أمكن لهم ترويض انفسهم على الاقلاع عن التدخين النهار كله ..

وفي هذا دلالة دالـة على نجاح التجربة التغييريّة ، وعلى قدرة النفس في مجال الاقلاع عن عادة ما ، غير أن هـؤلاء اذا أقبل عليهم الليل عادوا الى التّدخين بافراط ملحوظ ، . فهـم بين هذين التصرّفين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.. اذ إنهم احترموا تجربة التغيير في النهار واطمأنّوا اليها ولكنهـم استخفّوا بها ورفضوها في الليل .. وبهذا افسـدوا على شعيرة الصّوم سلطانها في التهذيب والتصحيح ، وقدرتها على أن تعطي العطاء العظيم في مجالات التغيير والتطوير ..

ضريبة الانتماء

المنتمون الى دين من الأديان او ملّةٍ من الملل ، ملزمون ان يلتزموا بما يترتب عليهم من حكم الانتمـاء الى ذلـك الديـن وتلك الملة .

فأن لم يلتزم هؤلاء بما يجب عليهم الالتـزام بـه ، فـأن انتماءهم الى ماانتموا اليه محض ادّعاء بما لا يقوم على وجوده وثبوته دليل .

ان التردد بين الانتماء واللا انتماء من اسوء ماينـوء بـه الحسّ الانسانيّ في كائنٍ حيّ .. وقد سمعنا الشاعر يقول :

تعصي الاله وأنت تزعم حبّه   هذا لعمري في القياس عجيب

فالمنتمون الى ملة من الملل والمتسمّون باسمها ملزمون ابداً ان يؤدّوا ضريبة هذا الانتماء وان كانت باهظة ، لاسيما عند

انتفاء الاعذار المشروعة التي تركتها الشريعة لاتباعها خشية تعرّضهم لطائلة الحرج ، ووقوعهم في تباعة التقصير .

ان الانتماء اعتناق ، والاعتناق وضع ربقة في الاعناق ، ومن اعتنق عقيدة عن علم وبيّنة فأن عليه ان يلوم نفسه قبل ان تلومه النّاس ان فرّط في وجائب هذا الانتماء .

كثير من المسلمين ملومون على تجاهلهم طبيعة الانتماء الى دينهم ، وتفريطهم في أداء ضريبة انتمائهم اليه ، وهي ضريبة مستحَقّ عليهم أداؤها ، ومن بعض مفرداتها صوم رمضان الا من أسقطت عنه الاعذار هذا الوجوب .

الله أكبر ...

هذا لفظ يكثر ترداده في كل صلاة تصلّى في ليل أو نهار ..

فاذا بدأت تصلّي قلت « الله أكبر » واذا ركعت قلت ذلك أيضاً ، واذا سجدت واذا جلست واذا نهضت فانك قائل هذا الكلام الذي يحسن بك أن تعنيه حين تقوله ، وليس أن تقوله ولا تعنيه ..

ان المصلي حين يقبل على الصّلاة يترك وراءه ما يترك من أعمال وحاجات ، وينفض يده عن شواغل شاغلة منقطعة أو متصلة ..

وهو حين يتقلب في صلاته ويتنقل فيقول « الله أكبر » فإنما يشير بهذه المقولة الى أن الله أكبر من سائر تلك الشواغل وأكبر

من كل غرض من أغراض الدنيا التي مهما بلغت من الجدّيّة والأهمّيّة ، فانها لن تستأهل أن تكون كل شيء في وجود الانسان وفي تثبيت شخصيته .. وفي شغله عن الالتقاء بربّه في محاريب التقوى والصلاة والطاعة .. ولعلّ هذه التكبيرة التي ترد في حالات الانتقال من ركن الى ركن في تضاعيف الصلاة ، انما ترد في مواجهة ما يعرض للمصلي من وساوس الشيطان ونزغه في النفس البشريّة ما ينزغ ليجرّها الى طريقه ويحملها على وجهته فأنّ مغريات الافساد قد تكون أقوى من مغريات الاصلاح ولقاء هذا تكون كلمات التكبير قوارع في صماخ الشيطان تطرده طرداً وتزجره زجراً فيذهب عنك اذ تصلّي وهو خاسيء وحسير مادمت تلاحقه بهذا الشعار اللاهوتي الخالد « الله أكبر » .. حقاً أن الله تعالى أكبر من كل ما هو زائل من متاع وحطام ورغبات وآمال وأمنيّات .. وحين يكون الله أكبرَ من كلّ ذلك في نفس المصلّي فانّه لن يشغله شيء" عن عبادته .. ولن يكون هناك من هو أكبر عنده من ربّه ، فيتعامل واياه تعامله مع الله ..

غريزة التذوق ..

كلمة التّذوّق ذات معنى صار يعدّ من بعض المصطلحات العلمية التي لها كرسيّها في المعاهد ، وآية ذلك علم التذوّق الموسيقي .. والتّذوّق لدى بعض آحاد الناس موهبة موهوبة لهم يعرفون بها حجم الجودة في المذاقات والعطور والمواد المركبة ..

والتذوق اذا فسد في ذائقة الانسان حارت مصانع الادوية والعقاقير في امر ردّ ذوقه وذائقته اليه •• ومن هنا صنع طهاة العالم المشهّيات والزلاطات لتسوّغ الطعام لمن لا يستسيغه ، وتشهّيه لمن سكتت عن الرّغبة فيه شهيّته••وانّا في سائر وجبات الطعام إبّان العام كلّه باستثناء شهر الصّيام انّما نُقبل على الطّعام لأن وقته المعتاد قد حان فصار وظيفة محضة ولأن القدور يجب ان ترفع عن المواقد ، ولأن الموائد لا يجوز ان يُصبَّر عليها الطبيخ المطبوخ •• وربما أكل أحدنا أكلـه مرغماً لهـذه الاعتبارات وغيرها •

فاذا جئنا الى رمضان وماله من دور في هذا الحيّز وجدنـا انه ينعش في نفس الصائم غريزة التذوق لدرجة يملك بها الصّائم ان يضع الدرجة الأمتحانية للذّة في كلّ شيء لذيذ ، ولقـوّة العطر ونفاذه في كل شيء ذي عطر وان لم يكن فواحاً تماما •• وانه لو أغمض عينيه وتشمّم الأشياء لعرف كُلاًّ بسيماه ••

وان الصائم ليحترم عود الكرفس الذي يرى فيه كل ابداع الطبيعة وكلّ زهـو الرياض والبسـاتين •• ويحترم الكسـرة الصغيرة المحمّصة خامرَها اللونُ الحرَقاني من لَسعَةِ الفرن ولفحة التّنّور ••

وانه حين يضع أصغر لقمة في فمه يبتدر بها الافطار اثـر الاذان ، او حين يدس طرف الملعقة فيه بالحساء ، او يرتشف من ثغر القدح رشفة العصير يتمضمض بها ويتلمظ ليجد في كلّ هذه

الجرعات مذاقاً لا يملكه اعظم الذواقين من الطهاة والخبراء وذوي العلم بنكهات الطعام ..

لقد كان الصيام جديراً ان يمنح الصائم تذوقاً مرهفاً في مواجهة المذاقات لم يكن له منه قبل يوم صيامه ولحظات افطاره قليل او كثير ..

وانّ أعظم نعمة للطاعم يَطْعَمُ طعامه أن يستمتع بتذوّقه والتلذّذ به ، وبذلك يكون الطّعام مريئاً له في مريئه وهنيئاً له في جوفه .. وفي الصّيام كثير من هذه البركات المباركة التي تبرز على مائدة الافطار ، وبهذا يحقّ لأناس ان يفسروا قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ان للصائم فرحتين احداهما عند فطره .. » بأن ساعة الافطار ساعة يغمرها الفرح بسبب اجتياح اللذّة جميع ارجاء تلك الساعة .. غير أنا وقد قلنا هذا لابد ان نقول أيضا ان النّهمَ لا يعدّ ألبتة خصلة من خصال الذوق والفن ، فان الله حرمهما على النهمين ..

وأمرت أن أتلو القرآن

تلاوة كتاب الله مسألة فيها الخير الجمّ والتهذيب العظيم .. وقد أمرنا الله تعالى بمقارفة هذه الحسنة الرّوحانية الرّشيدة .

ولكن الذي عليه أمرُ كثيرٍ من النّاس اليوم أنهم صاروا يكتفون بالاصغاء الى من يتلون القرآن في الاذاعات وبسائر أجهزة الاعلام والمساجد .

وهذا لا يكفي لتفسير ما في النصّ من دعوة الى تلاوة كتاب الله ، وتذوّق ما في التنزيل العزيز من آداب ومعاني وحكم ومذاقات وجدانية قيّمة ..

إنّ مباشرة التّلاوة غير الاستماع والاصغاء..ففي مباشرة التلاوة رؤية ملموسة للنصّ المقروء وفي الرؤية اقتحام لحروف ذلك النصّ ، واستيعاب لما فيه من غرض معروض اليه ، وغاية متغياة فيه ، تفوت على السامع الا اذا كان أوعى من مبلغ وقارىء .

أن في امكان القارىء أن يتلبث ويتوقف على ما يقرأ ، وليس بامكان السّامع أن يصيب مثل هذا الامكان من طريق السماع لأنه ليس في طوقه طلب استعادة التلاوة من التالي المرة والمرتين ، ولكنه في طوقه أن يتوقف على النص الذي يتلوه بلسانه المرة والمرتين ، واعمال الفكر في تأويله واستنباط المعاني منه ، قبل أن ينتقل الى النصّ الذي يليه .

وانّه ليحسن بنا أن نتلو القرآن في بيوتنا تلاوة صامتة وغير صامتة ، وسنرى أنّ هذه التلاوة تكشف لنا عن أكثر من انتباهة الى دقائق في كتاب الله لا تتيسر لنا عند الاستماع الى من يتلو القرآن وهو في مكان عنا جدّ بعيد ، وانه في كلٍّ خير أن تتلو القرآن بنفسك ، وأن تستمع الى من يتلوه عليك ولكنّ تلاوتك القرآن بنفسك أجلى وأحلى ، فلقد أمرت أن تتلو القرآن .

التسامح في الصغائر

كثيراً ماينصبّ الاعتذار للمقصرين من النّاس والمفرّطين في أمرٍ من أمور الدنيا والدين ، بأنّ ماصنعوه وما اقترفوه أمرٌ يسير ليس بذي أهمية .. فمن أساء بكلمة يسيرة الى أحدٍ ما ، فانّ كون الأساءة يسيرة يستوجب الاغضاء عنها .. وان امتداد يَدِ أحدٍ من النّاس الى شيءٍ تافه يسرقه لا يستوجب اللّومَ ولا التثريب ولا العقابِ ولا الحساب، لأنّ السرقة المسروقة لا تعدو ان تكون شيئا في غاية التفاهة !! ان هذا النمط من تعليل اعمال جنائية قصد اِعفائها واِعفاء متعاطيها من التبعات ، لهو الجرم بكل ثقله ومواصفاته وقبائحه ومخازيه ..

فالجناية جناية" صغُرت أم كبُرت .. والتَّسامح في صغائر الجنايات يؤدّي الى استشرائها ، كما يؤدي الى التّسامح فيما يستشري منها بعد حينٍ .. وقد تكبر وتكبر حتى يكون التسامح فيها مرفوضاً من قبل الجميع .. لسقوط كل حيلة وانعدام كل معذرة وفتوى ...

في الحديث النبويّ الشريف « انّ الشيطان يئس ان يعبد في أرضكم ولكنه رضي انيطاع فيما تحقرون منأمور دينكم.. » وهنا تكمن الطامة الكبرى التي هي في واقع أمرها صغائر لا ترى لها الناس من شأن وأهمّيّة فلا تباليها ، ولا تراها الا كرة ثلج صغيرة ولكنها تنسى وتتغافل عن كون كرة الثلج هذه مؤهلة ان تكبر وتكبر تلقائيا فيعيي أمرُها كل يد وكل قدم ...

والشيطان قد قرّت عينه بهذه المحتقرات الضئيلة لأنّها سبيله الى كل شرّ عظيم وباقعة طخياء …

ان التسامح في الصّغائر افتتاء بجواز الوقوع في الكبائر ، لأن الصّغائر هي السّبيل الى الكبائر .. فلابدّ من الحذر والخوف الشديد من التسامح في الصّغائر ، قبل التورط في كبائر الذنوب والسّيئات يوم لا تنفع في شيء من ذلك عظة ولا تأنيب ولا عقوبة .

اليه يصعد الكلم الطّيب والعمل الصالح …

حين ينسجم عامل وعمله ، يتحصّل من ذلك الانسجام جنس من النّتاج طيّب مَرْضِيّ المواصفات لا يتحصّل مثله حين لا يكون ثمة انسجام بين عامل وعمله ..

ان الانسجام بين عامل ومايعمل وكاتب ومايكتب ومقاتل وحالة قتال يرد به عن حرمات وطنه وارضه ، ومتعبّد وشعيرة عبادة يقبل عليها ، فأنّ شيئاً من اللذة يغمر نفوس هؤلاء فتجدها تعيش في بحبوحة نشوة غامرة طاغية تنسى بها الجهد والضّجر والمعاناة ..

غالبا ماتكون الاعمال التي يقارفها العامل والكاتب والعابد والمقاتل قاسية وعسيرة ، ولكنّ روح الانسجام وما يقارف هؤلاء من عمل يُحيل الشعور بالضّجر ولوعاً ، والنفور غراماً ، والعناء راحة والتعسير تيسيرا ..

فاذا كان كذلك ابدعت الأيدي العاملة في عملها ، والسواعد المقاتلة في تصويب اهدافها ، والعُبّاد المتعبّدون في تنقية عباداتهم ، واخلاص نياتهم .. وكل هؤلاء تتسابق ملائكة السماء الى العروج بأعمالهم الصالحة الى سماء الله حفولاً واجلالاً واعظاما .. فتظلّ هذه الصالحات الطيبات من اعمال الناس تركب جناحاً وتنزل عن جناح حتى تعرض على الله فيجزي الذين احسنوا بالحسنى ويجزل الثواب لمن يكونون حقيقين بالثواب .. انّ صدق العزم في الصّائمين يتخطى بهم جميع مراحل الثقل وعقبات السأم ، فينسجمون وما يؤدونه في عُرْض نهارهم من فريضة الصوم بارتياح وتقبّل نفسي لا يعلق بـه الملل من طاعة الله .. وهكذا يكون العطاء ، ويكون النّماء ، ويكون العمل الصّالح الذي يرضي الله والرسول ، . وصدق الله اذ يقول (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ..) ..

يوم بدر

العبرة في يوم بدر أن تكون الفئة القليلة العدد هي الغالبة في مواجهة فئة هي أكثر عدداً منها .. لقد كانت الفئة المنتصرة هي فئة المسلمين ، الذين أراد أعداؤهم غزوهم وهم في عقر دارهم .. ولكن أولئك الأعداء خذلوا رغم قوتهم واندحروا فقتل منهم من قتل وأسر من أسر .. وقد سجل الله ذلك في قرآنه المجيد في الآية الكريمة « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » والمراد بالذلة هنا الضعف الذي لا يكافي قوة الجيش المعادي الذي يملك كل الاستعداد بمهمته القتالية .. وليس المراد به الانهيار النّفسي

والتفكك الاجتماعي والعجز عن حمل السلاح .. ولكن الله نصر هؤلاء على هؤلاء رغم عدم التكافؤ بين القوتين الغازية والمغزوة ... ان دقة التصرف والتخطيط بوعي عسكري رشيد، هو الذي كتب الغلبة لفئة النبيّ فلقد كانت تدافع عن وجودها الذي تريد قريش القضاء عليه .. وكانت فئة النبي – اضافة الى وجوب الذّود عن الدين – تحارب ذياداً عن المدينة ومن فيها من أهل ورعيّة مؤمنة .. ولكنْ لو تحقّق لقريش ما أرادت لأبادت من تظلهم سماء المدينة من المسلمين .. ان الحرب وان كانت تعتمد على السلاح والجند المدرب ، فهي كذلك تعتمد على اعتبارات أخرى لها أثرها انفعال في انتزاع النصر والغلبة .. فمما كانت تعتمد عليه حرب بدر من زاوية نظر المدافعين عن المدينة ، أن مدينتهم ستفنى وستباد ابادة تامة ، وأن نساءهم وذراريهم سيكونون مضغة ممضوغة في فم غزاة حاقدين ، شقّ عليهم النصر الذي حازه المسلمون ، والعزّة التي اكتسبتها فئتهم المؤمنة بالله ورسوله.وقد علموا أن هزيمتهم أمام أعدائهم ستكون هزيمة لجميع القيم التي هي من معالم وجودهم ... وهزيمة لجميع لجيلهم ولسائر أجيال الدّهر .. أما المشركون فكانوا يفتقدون ما ألزموا أنفسهم به من بناء معالم الخير والحقّ والانسانية لجيلهم ولسائر أجيال الدّهر .. أمّا المشركون فكانوا يفتقدون هذه المعاني ... وكانوا لا يرون أنهم سيُغْلبون ، لأن النصر في تقديرهم منوط بالكثرة والكثرة كائنة في حشدهم المحتشد.. ولكنّ قانون الحرب الطبيعي لا يعتمد على هذا المقياس وحده

ما لم تكن وراءه أكثر من دعامة تدعمه .. ومن هنا كان يوم بدر يوم نصر للمسلمين وخذلان للغزاة المعتدين ...

ميراث امة

أجدني يحلو لي أن أصف شهر رمضان بأنه ميراث الامة الجدير بالاعتزاز .. واجدني احسب الزمان بكل سنيه واعوامه فراغا في فراغ ما لم يكن بين شهور سنيه واعوامه شهر اسمه شهر رمضان ..

انّ هذا الشهر تقام فيه كلّ عام حلبة صراع بين النفس وشهواتها ، وبين هداها وهواها ، وبين ضعفها وقوتها ، وبين صبرها وجزعها ، وبين انصياعها وتمردها ، وبين شيطانها ورحمانها ، فاذا بها تبرز من حلبتها كأجلى مايكون الذهب الابريز جلاءاً وبريقاً وصفاءا ..

انه شهر على قسوة نهاره ، مغفورةٌ له قسوته بلطف لياليه .. وهو على شحّ مطبخه ماطلعت شمسه ، سخيةٌ مائدته ما أقبل ليله .. ان كاساً من الماء البارد ساعة الافطار فيه ، لتغفر جريرة العطش القاسي اِبّانَ صيامه..وان احدنا بعد أن يسكت عنه سعار الظمأ وتبتلّ عروقه في لحظات الافطار ، ليبيت منتشياً مزهواً بما كان منه عبر نهاره ، من صلابة وصمود واعتداد بالقدرة الكائنة في جسمه في مواجهة جميع المصاعب الثقال ..

لقد صامت الامة مع رسولها العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل اربعة عشر قرناً وماتزال تصوم .. وكائن مَرّ

عليها شهر صومها وهي فرحة بما وهبها الله تعالى من عز وشأن وكائن مرّ عليها وهي تصارع غدرات الغادرين وترقب النصر بكلّ ثقة ورجاء .

فكانت ابدا وفيّة لشعائره، فرحة بحلوله، مستمرئة أيامه، مستعذبة لياليه ، تجد له في مذاقها نكهة لا تجدها في شيء سواه، وتحسّ له في وجدانها شخصية مازها الله بكل المزايا والحسنات ..

لقد عايشته في سائر مواسمه الزمنيّة ، من صيف وشتاء وربيع وخريف ، فهو في كل اولئك المواسم شهر كريم المقدم محمود الذكريات .. صامه افرادها وهم احداث وفتيان وصاموه وهم كهول وشيوخ .. وصامه الفتيات والصبايا حتى تقدمت بهن السنّ فصمنه وهن شيخات صالحات ..

حين تكرّر أحداث مشرّفة في حياة الأمة فتكون جزءاً من اجزاء حياتها ، فأن ذلك هو التأريخ ، وان ذلك هو الميراث الذي نباهي به الأممَ يوم القيامة .

والصائمين والصائمات

كما فرض الله الصّوم على الرّجال فرضه على النساء ايضاً .. وكذلك كان الأمر في فريضة الصّلاة التي فرضت على القبيلين معاً . واذا أمعنّا النّظر في النصّ القرآني التالي « انّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين

والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصّائمات .. » وهو نصّ لم أكمل نقله .. نرى ان جمهرة الفضائل التي عرفت في الرجال عرفت بالذّات في النّساء .. فما في الرجال من انفرد بخصلة كريمة دونهنّ .. فاذا جئنا الى حكم الصوم وجدناه قد فرض عليهنّ كما فرض على الرّجال فهن شقائقهم لامرية في ذلك ..

واشتراك النساء والرجال في هذا يدلّ دلالة واضحة على الأشتراك في جميع الجدارات ، أي انهنّ يمتلكن من الجدارات العقلية والجسميّة ما يمتلك الرّجال منها ، ولو كان شأنهن في هذا ضئيلاً لانفرد الرّجال بتحمّل فريضة الصّيام دونهنّ .

ولكنّ الذي كان هو أن الصّوم فرض عليهم وعليهنّ ، فهن في الحقيقة شقائق الرجال ، وهنّ والرجال على قدم واحدة في احتمال أعباء العبادات من صيامٍ وصلاة وحجّ وزكاة وغير ذلك من أحكام الدين الحنيف ..

انهنّ يملكن من أدوات الصّوم مايملك الرّجال من صبر وعزم والتزام واخلاص وحرص وأمانة وجلد وقوّة .. وهنّ يملكن ـ كذلك ـ من أدوات كل عبادة ما يملك الرجال في مواجهتها من أسباب الأداء والألتزام وصدق النيّة وقوّة التعلّق بالخالق العظيم والسّخاء في العطاء والنّفقة ..

الصوم ورقة العاطفة

ترقّ عاطفة الصّائم فلا يشبهها رقةً شيء في الاشياء الرقيقة .. وانما يأتي هذا من ابتعاده الجزئي ـ أو الكلّي ـ عن عالم المادة ، وتقربّه الجزئي ـ أو الكلي ـ من عالم الروح ... لاسيما في الفترات الأواخر من ايام الصّوم .. وبهذا يحسن أن يعامل الصّائم معاملة فيها رفق وتلطف ، لأن ذلك أحرى ان يؤدم بينه وبين مجاوريه ومحاوريه ..

انّ فعل الجوع في النّفس عميقُ الأثر وكأنّ الصّائم اذ يصوم يواجه خصماً عنيفاً لا تكافؤ بينه وبينه ، ومن هنا تطمع نفسه ان تجد من يعينها على ذلك العدوّ الشديد القسوة .. فاذا وجد الصائم أمامه من هو منطر مجاهر بالافطار انعدم رجاؤه في النصير المناصر ، وضعفت ثقته في الجار المجاور .. فأن الماشي ليلاً في طريق يشعر بالطمأنينة اذا لاحظ على الجانب الثاني من ذلك الطريق رجلاً يمشي وان لم يكن يعرفه ، ما لم يظهر في الأفق مايريب ...

فالصّائم يصوم في جوّ صائم وان كان يتحمّل هو وحده تبعة صومه فلو صام في جوّ غير صائم لشقّ عليه الصّوم أكثر مما لو صام ومعه صائمون كثر .. وهذا يشبه مالو مشى أحدنا ساعةً في طريقٍ ليس هناك من يسلكه معه فانّه يشعر بقسوة السّير خلافاً للحالة التي يكون عليها اذ يمشي ساعة في طريق يكثر طرّاقه وسالكوه .. فلِما يسمى بالمعنويات تأثير عظيم على الكائن الانساني في سائر الأحوال ..

ان الصائم ينزعج لأتفه الأسباب ويتسخط لما لا يصلح ان يكون سبباً للتسخط ، وذلك للرقة البالغة التي تسود آفاق نفسه .. واني وان لم أكن أعرف التدخين أو أتعاطاه ، فأني أستعظم أن يبرز على حين غِرّةٍ مدخّن يواجه صائما من المدخنين .. أو آكل وشارب يواجهه بالأكل والشّرب علانية .. ان الصّائم يفقد كثيراً من السمات التي تكون في اللاصائم فلا نراه يقوى على المقاومة في اكثر من جبهة من جبهات صراعه المرير .. أخلص من هذا الى توصية من يعيش بينهم صائم من أهلٍ وأصحاب ، ان يكون تعاملهم وصاحبهم تعامل رفقٍ تامّ فلا يستغضبوه ، فأنه اذا استغضب شقّ عليه الصّبر ، ولئن كان النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلم ـ قال في نساء رفقا بالقوارير فأني أحسب صفة القاروريّة هذه جديرة ان يوصف بها اكثر من صائم ...

تعب الراحة ، وتمايز الاضداد

الرّاحة اذا دامت فوق ضرورات الحاجة فهي من أشدّ مصادر التعب .. وانما تكون الرّاحة راحة اذا تهيّأت بعد عبءٍ من التعب ثقيل .. فان لم يكن ثمة تعب فلا حاجة بأحد للراحة .. فان اجتلبت الراحة اجتلاباً دون الحاجة اليها ، فانها لا لذة لها البتة .. ان الأشياء انما تتميز بأضدادها ، فلولا مرارة البخل ، لما كانت حلاوة السّخاء .. ولولا طول مكابدة السهر لما كان للنوم من مذاق لذيذ في الأماق والأجفان .. ولولا سُعار العطش وقسوة الظّمأ لما كان للماء البارد ماكان له على القلوب

الظامئة من أثر منعش عظيم .. واذا وضعنا الصّوم على ذات الطّاولة ودرسناه من نفس الزّاوية ـ وهو مشقّة أيّما مشقّة ـ وجدناه عاملاً مهمّاً في خلق اللذة وبعث النشوة في الصّائمين ساعة افطارهم اذ كانوا يمضون نهارهم بالحرمان التّامّ فباتوا يمضون ليلهم بالحرّيّة التّامّة .. فهم في النهار جياع عطاش وفي الليل يرتعون شبعاً وريّاً ناهيك بهما من شبع وريّ .. ان أصل ذلك هو التمايز بين نقائض الاشياء اذ إن أحد النقيضين اذا استقل بالوجود والدّيمومة فسدت سائر المذاقات واختلّ على القائس القياس.. فانّ كلاّ من النوم واليقظة اذا دام نبغ منه العناء والخطب الثّقيل..وان كلاً من الرّاحة والتّعب ان استمرّ كان طامّة كبرى على الحياة ونظاماً مملاّ للاحياء .. ومن هنا كان الصّوم أدق مقياس يعرف به تمايز الأضداد ، وتناقض الأشياء في عالم الحياة المكتظة بالمتناقضات ...

دروس في الصبر

الحياة متقلبة أبدا .. فما من حيّ يدبّ فيه دبيب الحياة الاّ كان مرّة أو أكثر من مرة، قد ابتلي ببعض ابتلاءاتها..فبينما هو في بحبوحة من اليسر اذا هو ـ بين عشية وضحاها ـ في هوّة عميقة الغور من العسر والمحنة ..

وقد يقع لمن عاش على ضفاف الأنهار أن يعدم أن يصل الى شفتيه شيء من مائها يبل به ريقه ..

انّ الحياة تتقلب بين السّراء والضّرّاء ، والوُجْد والحرمان ، وما يطاق من الأقدار وما لا يطاق ، وما يتمنّاه المرء وما يُتمنّى سواه .. فلابدّ أن يكون الكائن الحيّ مزوّداً بغريزة تطغى على سائر غرائزه ليملك مواجهة أحداث الزّمان وهموم الحياة .. ألا وهي غريزة الصّبر الذي نسمّيه أحياناً الصّمود .. فان لم يكن مزوّداً بذلك ، صنع به الجزع ما يؤذيه ، وفعلت به الهزيمة مايذلّه ويخزيه ..

فاذا نظرنا الى فريضة الصّوم التي يرتكز عليها الجوع الاجباري أطول فترة من الزّمن ، مضافاً الى ذلك مايجرّ الصّائم الى احتمال أكثر من مشقة جسديّة طارئة ، وجدنا أن عملية الصوم هذه ليست سوى دروس في الصبر يرتاض بها الصّائم على مقاومة الأحداث والصّعاب في حياته ، ويطرد بذلك ما يعلق بالنفس البشرية — عادة — من عاهة الجزع والتخاذل واهتزاز الشخصيّة لأبسط الأحداث ..

فالصّوم — اذن — ليس إلاّ مسيرة حاذقة واعية تروض الصّائم على الصّبر وترسم له ان يأخذ العدّة اللازمة لكل أمر من أمور الحياة ، وكل حدث من أحداث الليالي والأيام ..

وينزّل عليكم من السماء ماءاً ليطهركم به

بديهيّ انّ الماء النّازل من السّماء يحيي الأرض بعد موتها فينبت اعشابها ، ويورق اشجارها ، ويثمر اثمارها ، ويسقي من فيها من احياء الاناسيّ والأنعام .. هذا هو امر الماء الذي تصلح

به صناعات واعمال ، تنعدم بانعدامه ، وتنتعش بغزارته ، وتربح بتدفقه ، وتجري به في بحره السّفن المواخر فيه .. وفيه يكون للاسماك والحيتان عالم واسع عظيم ..

وبالماء تطفأ الحرائق الجاحمة ، وبالماء تطيب الاجواء ، ولخرير الماء مذاق لذيذ في الاسماع .. ففيم خص الله الماء في الآية الكريمة بأمر واحد هو التطهير ؟؟.. لقد كانت هذه الخصيصة في الماء اكرم خصائصه ، وابركها واطيبها ، ولقد اراد الله ان ينبّه الاذهان ويصرف العقول الى ان حكاية النظافة اصحّ حكاية روتها الأجيال للأجيال .. فلذا ذكر الماء موصوفاً بطاقة التّطهير ليمنّ بذلك على النّاس الذين يجد كثيرٌ منهم الماء موفوراً لهم ولكنّهم لاينتفعون من طاقة التّطهير فيه .. وذكر الماء موصوفا بأهليّة التّطهير لينبّه الى قدسيّة النّظافة في الملّة السّمحة ، أجل لقد كان الحثّ على التّطهير والنظافة سمةً اسلامية تعبّدية فلا تقبل صلاة من الصّلوات بغير اللّياذ بالنّظافة والوضوء والتّطهر جسماً وثوباً وفراشا ، وكذلك القول على سائر مهمّات الحياة اليوميّة من اكل وشرب ولباس ..

غير إنه من المؤسف ان يكون طابع الاحياء الاسلاميّة طابعَ قذارة واتساخ لا يبيت شيء منها دليلاً على اصالة النّظافة في الاسلام وآية ذلك وشاهده عشرات المطاعم والمقاهي والازقة والبيوت التي صبغها التّهاون في حقّ النّظافة بلون كالح

رهيب ؟؟ ترى ماذا كان يقع في اوساطنا لو لم يأمرنا ديننا الحنيف بالوضوء كل يوم خمس مرات ؟ ..

ليلة القدر خير من الف شهر

وصف التّنزيل العزيز ليلة القدر بأنها خير من ألف شهر .. وليلة القدر هي الليلة التي نزل فيها القرآن الكريم .. وانما قيل لها ليلة القدر لأن أقدار العباد رسمت فيها ولأنّ القرآن اذ نزل فيها نزل بأحكام وتعاليم وعبادات ومصالح زمنية سينبني عليها أمر العباد في سائر أرجاء الأرض ...

في ليلة تلك الذكرى التي تقرر فيها تغيير معالم الحياة في العالم .. بديهي أن ليلة في مستوى هذه الليلة جديرة أن تكون خيراً من ألف شهر ، بل خيراً من ألف عام ، بل خيرا من ألف قرن .

فانّ القرآن لا يعني بالألف شهر هذه ألف شهر معدّدة بعددها ، فأن الأعداد في القرآن غالباً ما تأتي من دون أن يكون لها مفهوم حسابي لايزيد ولا ينقص وانما تأتي للاشارة الى مقدار عددي يراد به التّنويه بكثرة كاثرة لا غير ، وبهذا يكون المعنى انّ ليلة القدر خير من شهور الدهر ..

وانما كانت ليلة القدر قد اصابت مثل هذه القدسيّة في الاسلام لأنها كانت وعاءاً استوعب أعظم أحداث الزمان وأكبرها شأناً وأثقلها وزناً في كفّة ميزان التّأريخ .. ومعيار تكريم المواسم والأزمنة انما يعتمد على مايكون قد جرى فيها من جلائل الأحداث وعظائم المكاسب والانتصارات ، التي تفرض نفسها

على اطار الخلود والبقاء في صحف التاريخ واذهان الأجيال ..
وبذلك كانت ليلة القدر خيراً من ألف شهر ...

القوة وضعف المؤمن

المؤمن القويّ احبّ الى الله من المؤمن الضّعيف ، .
ولكنّ المفروض في المؤمن الضّعيف أن لا يكون الاّ قويّاً في معادلة اللقاء بالعدوّ في ساحة الحرب برقم أدنى من رقم قوّة المؤمن القويّ عند اللقاء ..

وها نحن نقرأ في كتاب الله « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فانْ يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وان يكن منكم الف يغلبوا ألفين .. » فان الله جعل المؤمن وهو في حالة ضعف مفروضاً فيه أن يكون عِدْلاً لاثنين ممن يقاتلهم ويقاتلونه .. لا أن يكون أدنى من ذلك في المعادلة ، فان كان أدنى من ذلك في المعادلة ، دلّت حاله على أنها حالٌ منزوع منها الايمان والقوّة في آن واحد ..

وانما كان المؤمن الضعيف أقوى من اثنين من مقاتليه لأن للمؤمن الضعيف في قتاله هدفاً ليس للكافر مثله .. فالكافر عدوانيّ تدفعه نزعة التسلط الى قتال النّاس ، ونزعة التسلط مهما كانت عارمةً في النفس فانها في تصاعدها القسري معرّضة لانهيار ذريع وتراجع الى الوراء حيث تنتظرها هوة سحيقة من البوار .. وهدف المؤمن هو الخير والاصلاح والدفاع عن النفّس ...

أما أن لا يلبس المؤمن الا لباس الضّعف والخوف ، وأن لايبدو الا مذعوراً مولّياً ظهره لعدوّه ، وأن لا يكون الا عاهة جبن ميؤوساً من علاجها ، فذلك مرفوض في دفاتر نفوس المؤمنين ..

الصوم وممارسة الحياة

تمرّ حياة الأحياء بظروف كثيرة متناظرة ومتخالفة ، فلابدّ أن يمارسها الكائن الحيّ على ماهي عليه .. فالجوع والعطش والحرّ والبرد والهمّ والغمّ أمور كائنة في حياة الناس قد يعييهم أمر ردّها الا بالصّبر دون الجزع والتجلّد دون الانهيار والصّمود دون التّزعزع ..

أنّ مواجهة الحياة بما أودع الله في الأحياء من قوى ومناعات ، أمرٌ هو في صالح الانسان .. فلابدّ اذن من تحمل بعض الحر وبعض البرد وبعض الجوع وبعض العطش على مسؤوليّة هذه الأجساد وحدها ، دون الاستعانة منذ اللحظات الأولى بأجهزة تبريد وتدفئة اللّهم الاّ عند استشراء ذلك وطغيانه ..

فانّا ان شقّ علينا يسيرٌ من الحرّ فلذنا بالمبردات ، أو شقّ علينا يسير من التعب فعذنا بالسّيارات ، فبماذا نلوذ وبماذا نعوذ اذا عظم الخطب وثقل العبء .. على أنا اذا عالجنا أوائل أيامّ الحر وأوائل أيام البرد بالعلاجات الآلية فانا انما

نعمل بذلك على تحطيم قدرات مودعة في أجسامنا لغرض الاستعانة بها على تحمل حالات مماثلة ..

ان السير على الأقدام من أحسن أنواع الرياضات النافعة للأجسام ، فان نحن اعتدنا امتطاء السيّارات فسنفقد حتماً بمرور الزمن القدرة على اجتياز المسافات الطويلة مشياً على الأقدام .. لأن اهمال ذلك يفقد أقدامنا مَلَكَةَ السير الاّ بواسطة ..

وبذلك كان الذين يصومون رمضان يروضون هذه الملكات في أنفسهم فيدّخرونها حين تعنّ الحاجة اليها يوماً ما ..

فالصّوم بجملته وتفصيله انّما هو عمليّة صغرى لممارسة الحياة على مسؤولية الجسد وما فيه من قوى ومناعات ...

الألف المفارق

من بعض طبائع النفوس البشرية ـ وغير البشرية احياناً ـ أنّها اذا استمرأت حالةً ما ، كرهت ان تفارقها..وعلى هذا يشقّ على اناس أن يغادروا بيتاً قديماً عاشوا فيه الى بيت جديد ، وعملاً ألِفوه واعتادوه الى عملٍ آخر من غير نمطه وشكله .. ومقهى جالسوا جلاسه الى مقهى سواه .. ومكاناً في المسجد كانوا لازموه في صلاتهم وعطّنوا فيه الى مكان يجاوره أو الى مكانٍ لا يجاوره ..

ان هذه السّذاجة الفطريّة عُرفت في العــرب بمقياس واسع عريض ، ووزن كبير ثقيل ، ومن هنــا طال حنينهم الــى مرابعهم وبكاؤهم على طلولهم ..

وحكايتنا مع رمضان والصّوم في رمضانه ، ذات الحكاية فانّا رغم اجتراعنا منه وفيه جرعات من الضجر والعناء ، فأن طول لبثه فينا أوجد بيننا وبينه نسباً أشعرنا بأن مرارته لا تخلو مــن حلاوة ، وأن محاسنه فاقت في التّعداد اضدادها فيه ، وأنه كــان شهرا مباركاً حقاً ، وبذا بدأنا نتوجع لمغادرته ، ونأســى لفراقه ، وصرنا نقبل منه ما شكوناه منه أول دبيبه الى ساحتنا ومقدمــه الينــا ...

اننا ننظر اليوم الى آخر افطار لنا فيه ، وكأنّنا ننظــر الى آخر لذة في طعام وشراب لذذناها في الحياة .. أنه ا ِلف" حبَّبته الى نفوسنا روحانيّة فيه تجلّ عن الوصــف ، وشدّته الينــا وشدّتنا اليه روابط من تاريخ طويل كان قد شدّه الى آبائنــا من قبل وشدهم اليه ..

انّ" شهر رمضان ما طلع هلال" وأفل هلال ، وراح عــام" وعاد عام ، محلّ ذكرى جميلة في أذهاننــا ، وودّ صــميم في نفوسنا وقلوبنا ، واجلال واكبار في ضمائرنا وعواطفنا ..

فوداعاً أيها الألف المفارق ، فان عاش عائشنا التقاك في صراع ودّي جديد وبروح رياضيّة نبيلة كريمة ..

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد

(١٧٦) لسنة ١٩٨٨

ثمن النسخة ربـع دينار
٢٥٠ فلسـاً

يطلب من المؤلف في جامع الخلفاء ـ شارع الخلفاء
بغــداد

دار الحرية للطباعة ـ بغداد